الفصل 21

السِّرُّ الساطع

«توجد أشياء في السماء والأرض يا هوراشيو،

أكثر مما حلمت به في فلسفتك».

شكسبير، من مسرحية هاملت.

وأنا في طريق عودتي إلى ميريلاند في تلك الليلة الحزينة من شهر سبتمبر، فكَّرت في شيئين كرهني الأطباء النفسانيون بسببهما، وأعترف أنَّني قد صُدِمت من عمق تلك الكراهية ومرارتها، وهي كراهية لم أعرف مثيلًا لها في حياتي.

عند مراجعة التقييمات بدا لي أنَّ الدكتور دروب والدكتور كلينمان كرها قوتي الروحانية، كما كرها قوّتي ودافعيتي لأنَّني امرأة، لقد أرادوني ضعيفة متوسلة، لكنَّني رفضت، وربما جرح هذا كبرياءهما وأغضبهما.

وكما ترون، فأنا أتمتع بحياة روحانية عميقة، وهي حياة ثابتة وخاصة، ولكنَّني - مع ذلك- لست مبشرةً أسعى إلى جعل الآخرين يعتنقون طريقة تفكيري، ولا يحبطني ضعف إيمان الآخرين. وبالرغم من ذلك، فأنا لست شديدة التدين، وهذه هي المفارقة الكبيرة في هذا كله،

إنَّ هـذا الإيمـان والروحانيـة يتغلغلان عميقًـا في روحي، وأنا أعترف أنَّنـي أُؤمن بالله والملائكة والنعمة الإلهية، والنبوة الممتدة منذ الأزمنة السـحيقة التي لا تزال تأتي للذين يفتحون قلوبهم ليسمعوا.

لم يدهشـني شـيء أكـثر من الإهانات التي تعرَّضت لها بسـبب التعبير عـن إيماني في أثناء أزمتي القانونية. والطريف في الأمر أنَّ الذين هاجموني لهم ارتباطات قوية بالحزب الجمهوري الـذي يناصـر وجهات النظر الدينية؛ فمثلًا: كان المدعي العام إدوارد أوكالاهان قد ترك وزارة العدل في شـهر يوليو عام 2008م؛ ليعمل ضمن الحملة الرئاسـية للمرشـح جون ماكين وسـارة بالـين [408]، ومـع ذلـك، وفي تصـرف لا يخلـو مـن النفاق، فقـد تعرَّضت لأشرس هجـوم؛ لأنَّني مارسـت إيمـاني بهدوء واعتـدال أكثر من بالين نفسـها، وقد ركَّز أوكالاهـان في مهاجمتي على الروحانيـة في حياتـي، وفي قاعة المحكمـة التي يفترض فيها أن يحظـى المواطنون بالحماية من الهجـوم عليهـم، إنَّ هـذا النوع مـن النفاق من أحد ناشـطي الحزب الجمهوري يجـب أن يكون مدعاةً لقلق الأمريكيين جميعًا، بصرف النظر عن الانتماءات السياسية، أو المعتقدات الدينية الخاصة.

إنَّ هذا النفاق يُثبِت، بما لا يدع مجالًا للشك، أنَّ الحزب الجمهوري يستغل الإيمان علنًا من أجل تحقيق مكاسب سياسية، ويحتقر الروحانية سرًّا، وقد سميت ذلك (المسيحية الانتخابية)، وهي لافتة كاذبة لاجتذاب الناخبين، والحصول على التمويل، إنَّه استغلال واضح للدين، ويجب أن يثير غضب كل مَن يؤمن بالله، أو بنزاهة العمل الانتخابي.

أقول هذا وأنا أُعلن صراحةً أنَّني استخدمت روحانيتي في مكافحة الإرهاب لإنشاء علاقات مع الدبلوماسيين العرب، انسجامًا مع فلسفتي في معارضة الحرب.

كان ذلـك مهمًّا بالنسـبة إليَّ لإثبات أن ليـس ضروريًّا اعتماد المجتمـع على التهديد بالعنف لتحقيق هذه الأهداف، وقد تجاوب العرب مع مبادرتي بلطف، وأدركوا وجود دافع روحاني وراء معارضتي للعنف، فتعمقت علاقاتنا نتيجةً لذلك.

أنا أُؤمن بشدة أنَّ العنف ينتج من ألم روحاني شديد يفتح الباب أمام العنف، وأُؤمن أنَّنا لا نستطيع مقاومة العنف من دون حب، وأنت لا تستطيع مقاومة العنف من دون حب، ولا تستطيع محاربة الشر بالشر، وتحتاج إلى الحب والرحمة لإطفاء لهيب الكراهية والتعصب.

كانت هذه المعتقدات هي التي وجهت أنشطتي في اتصالاتي كلِّها مع ليبيا والعراق طوال تسعينيات القرن الماضي، وهي معتقدات خاصة بي، وهي تُفسِّر سبب تعرُّضي لعداء مكشوف من الدوائر المؤيدة للحرب التي كانت ترفض الاعتراف بما أنجزته بالأساليب السلمية، لقد أردت إثبات أنَّ العدوان العسكري يمكن تجنبه، وإظهار أنَّ نهجي في معارضة الحرب عند التعامل مع العرب يمكن أن يضمن تعاونهم في مجالات عدَّة، ويُخفِّف – في الوقت نفسه– التوتر الذي يتحول إلى عنف، ولن يحتاج أحدنا إلى جهد كبير لمعرفة أنَّ طريقتي لم تُعجب دعاة الحرب، وقد انتقدني مَن لا يفهمون ما أقوم به بكل قسوة.

وبالرغم من هذا كله، أستطيع القول إنَّ طريقتي قد حققت الكثير من الخير، وإنَّني أشعر بالرضا – حتى وإن لم يشاطرني أحد هذا التفكير– للتغيير الذي حدث في كثير من السياسات.

وقد اعترف المسؤولان عني (هوفين والدكتور فيوز) بهذا التأثير؛ فبعد تحذيراتي الاستباقية فيما يتعلق بالهجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م، أخذا يتابعانني من كثب، وكنا نلتقي أسبوعيًّا حتى عام 2002م. وبلغ مجموع اجتماعاتنا نحو (800– 900) اجتماع، يضاف إلى ذلك أنَّني اجتمعت (150) مرَّةً مع الدبلوماسيين الليبيين بدءًا بشهر مايو عام 1995م، و(150) مرَّةً مع الدبلوماسيين العراقيين بدءًا بشهر أغسطس عام 1996م.

كانت طريقتي ناجحةً تمامًا، وإلا لما كان العرب والأمريكيون تعاملوا معي طوال هذه السنوات، وقد نلت أجمل إطراء من السفير الليبي السابق في الأمم المتحدة عيسى بابا، الذي قال لي في إحدى المناسبات: «لو أنَّ كل واحد تعامل مع مكافحة الإرهاب مثلما تتعاملين معه يا سوزان، لكانت الدول العربية كلها مستعدة لمساعدة أمريكا».

وللأسف، فإنَّ هجمات الحادي عشر من سبتمبر أفضت إلى شعور معادٍ للإسلام. وباعتقادي، فإنَّ احترام الأديان يبني جسورًا بين الثقافات، ويوجد نظامَ قيمٍ مشتركًا يتجاوز

خلافاتنا، وبالاستناد إلى هذه القيم، يمكن للحكومات الإسلامية أن تصبح حليفةً وشريكةً في العمل لخير الإنسانية، وحل المشكلات بالطرائق السلمية.

أنا لست الوحيدة التي تعتقد أنَّ الحياة الروحانية تستطيع شفاء الجروح بصورة أكثر من التركيز على الألم والخبرات السلبية.

إلا أنَّ الأطباء النفسانيين كرهوني لأنَّني آمنت بأنَّ الله سيظل معي في محنتي، لقد أرادوني أن أشك في إيماني، لكنَّني بقيت متمسكة بإيماني، ولم أترك لهم الفرصة ليجعلوني أشك في أنَّ الله تخلى عني، وقد حدثت معي قصة حقيقية، لكم أن تُصدِّقوها أو لا تُصدِّقوها.

كان ذلك في عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت اعتقالي، يومها لم أكن أعرف أنَّ حياتي ستنقلب رأسًا على عقب، ولكنَّني استيقظت في ذلك الصباح وأنا أشعر بنورانية غامرة استمرت ساعات، وهذا ما قد تشعر به إذا كانت لديك حياة روحانية، لهذه الحالة تسميات كثيرة في الأديان المختلفة؛ إنَّها (انكشاف الغطاء) كما يُسميها الصوفيون، إذ تشعر بالاتصال مع الخالق وجمال هذا الكون، لقد غسلتني بماء الحب الطاهر، ومنحتني نعمة الانعتاق.

يومها، لم أكن أعرف أنَّ هيئة المحلفين كانت تختتم مداولاتها في مدينة نيويورك، ولم أكن أعرف أنَّني سأُعتقل بعد أيام بتهمة الخيانة بحسب قانون الباتريوت.

كل ما عرفته هو أنَّ الله كان يحنو عليَّ، فامتلأت روحي جمالًا وسكينةً وحبًّا، وقد خطر ببالي أنَّ الناس يمرُّون بأنواع الأزمات والمتاعب جميعها، لكنَّهم يحتاجون إلى لحظة مثل هذه.

لقد جاءت هذه النعمة الإلهية من حيث لا أدري، ولم أجد تفسيرًا لها، فقد غمرتني فجأةً ومن دون مقدمات،

وأتذكَّر أنَّني شكرت الله على نعمه، بالرغم من المتاعب التي مررت بها مؤخرًا.

أردت الاحتفال بتلك النعمة الإلهية، فذهبت إلى مشتل زراعي، واشتريت شجرة يابانية من نوع الصفصاف الباكي، ثم غرستها في فناء بيتي، وسميتها (شجرة السلام).

بعد خمسة أيام اعتقلوني بتهمة الخيانة، عندما أتذكَّر هذه السكينة التي مررت بها أزداد إيمانًا بأنَّ الله كان يرى الذين يتآمرون عليَّ، فأنزل هذه السكينة ليواسيني، لقد جاءت هذه النعمة الإلهية قبل بدء متاعبي، فمنحتني الحب، وقالت لي إنَّ كل شيء سينتهي على خير، لقد مررت بهذا كله وأنا أُؤمن به من كل قلبي.

obeikan.com